

إشكالية البحرية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب "قراءة في الروايات"

عبد الله منسي العمري و نعمان محمود جبران *

ملخص

تناولت دراسات عديدة موضوع البحرية الإسلامية ونشأتها، في محاولة لتوضيح الأسباب الرئيسة التي أدت الى ظهور البحرية الإسلامية من جهة، ومن أجل التعرف على البداية الحقيقية والتأريخ لظهور هذه البحرية من جهة ثانية.

ومما يلفت النظر أن معظم هذه الدراسات يكاد يتفق على أن البداية الحقيقية لظهور البحرية الإسلامية تعود الى عهد عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين، نتيجة إلحاح ونصيحة من واليه على الشام، معاوية بن أبي سفيان.

ومن القضايا المثيرة للجدل - والتي تضمنتها معظم هذه الدراسات - أن معاوية كان قد أشار على الخليفة عمر بن الخطاب بركوب البحر، فرفض. ويوردون في أسباب رفض عمر لذلك أنه استشار عمرو بن العاص وطلب منه أن يصف له البحر، فقدم له عمرو بن العاص وصفاً مهولاً مربعاً جعل عمر بن الخطاب يرفض رفضاً مطلقاً فكرة استخدام المسلمين للبحر. وبالتالي فإن هذا الاتجاه في تفسير الروايات يظهر عمر بصورة الشخص الجاهل بالبحر والذي لا يعرف عنه شيئاً.

وتحاول هذه الدراسة أن تبين الخطأ الذي يرتكبه البعض في تفسير هذه الروايات وفهمها. فعمر بن الخطاب لم يكن جاهلاً بالبحر، وإنما أتى رفضه لركوب البحر حرصاً منه على المسلمين من جهة، وبسبب جهل المسلمين بالبحر المتوسط تحديداً من جهة ثانية، وبسبب سياسته المتمثلة بالتأني في الفتوحات الإسلامية من جهة ثالثة، وبسبب السيطرة البيزنطية على البحر المتوسط من جهة رابعة.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات أعضاء اتحاد الجامعات العربية 2006

* طبع بدعم من جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا.

** كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.

تعددت الدراسات التي تناولت تاريخ البحرية الإسلامية، والتي ناقشت ظهور البحرية الإسلامية ونشأتها وما طرأ عليها من تطور في عصور الإسلام المختلفة. ولعل واحدة من أهم القضايا التي ناقشتها تلك الدراسات البداية الحقيقية لظهور البحرية الإسلامية، من حيث تحديد بداية ظهور هذه البحرية كقوة عسكرية لها دور فاعل في تاريخ الفتوحات الإسلامية بشكل خاص، والذي يرجع الى فترة خلافة عثمان بن عفان، وما حدث خلالها من نشاط بحري قاده واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان⁽¹⁾.

وتكاد تتفق معظم الدراسات على أن الفترة السابقة على ذلك - أي على خلافة عثمان - لم تشهد نشاطاً بحرياً إسلامياً بسبب جهل العرب المسلمين بالبحر وركوبه⁽²⁾. بل إن بعض هذه الدراسات يذهب الى أبعد من ذلك، ويقبل ببساطة الرواية التي وردت في العديد من المصادر، والتي تشير الى أن عمر بن الخطاب كان يجهل البحر وينهى عن ركوبه. ذلك أن معاوية بن أبي سفيان، والي الشام، ألح على عمر في غزو البحر معللاً ذلك بقرب الروم من الحدود الإسلامية، فكتب الى عمر يقول: "إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم"⁽³⁾. فأتى ذلك في عمر الذي بعث بدوره الى عمرو بن العاص، واليه على مصر، يطلب منه أن يصف له البحر وراكبه؛ فكتب إليه عمرو "إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول؛ يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه دود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق"⁽⁴⁾. فما كان من عمر إلا أن قال "لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً"⁽⁵⁾.

إن الهدف الرئيس من هذه الدراسة هو أن نبحث في هذه الرواية وأشباهها من الروايات التي تشير الى جهل عمر بن الخطاب بالبحر، وأن ذلك الجهل كان السبب في نهيه عن ركوب البحر وفي تأخير البداية الحقيقية لظهور البحرية الإسلامية، كجزء مهم من القوى العسكرية الإسلامية. وسوف نحاول أن نتبع التطور التاريخي الذي نتبين من خلاله معرفة العرب - أو جهلهم - بالبحر في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام من جهة، كما سنحاول التأكد من تلك المعرفة أو ذلك الجهل في الفترة الإسلامية المبكرة من جهة ثانية.

لقد كان للبحر مكانة خاصة لدى العرب قبل الإسلام، يدل على ذلك كثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن البحر. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على معرفة العرب للبحر واستغلال هذه المعرفة عملياً عن طريق ركوب البحر وممارسة النشاط الاقتصادي من خلاله. وهناك العديد من الإشارات، في مصادر مختلفة، تشير على سبيل المثال، الى أن مكة كانت مدينة تجارية لها مينائها الخاص بها، وهو ميناء الشعبية، حيث كانت قريش تستورد السلع التجارية من خلاله. والشعبية هو مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، حيث جنحت إليه إحدى

السفن وتحطمت بفعل الريح، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة⁽⁶⁾. ومن مرافئ البحر الأحمر المعروفة (الجار) وهي مدينة على ساحل بحر القلزم، بينها وبين المدينة يوم وليلة ... وهي فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند⁽⁷⁾. كما تشير المصادر الى وجود علاقات اقتصادية قوية مع الحبشة، فيقال بأن أرض الحبشة كانت متجراً لقريش، يتجرون فيها ويجدون فيها رزقاً وأمناً ومتجراً حسناً⁽⁸⁾.

ثم إن موقع الجزيرة العربية البحري كان ذا أثر كبير على هذا الاهتمام البحري؛ فالجزيرة العربية لها سواحل بحرية طويلة تحيط بها من جهاتها الثلاث، الغربية والجنوبية والشرقية، مما يؤكد على أن أهل السواحل كانوا قد عرفوا البحر وعركوه، وعملوا على استغلال ثرواته، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدون تلك السواحل. ثم إنه لا بد لهم من أن يكون جمع منهم قد ركب السفن للاتجار مع السواحل المقابلة لهم، فباعوا في أسواقها واشتروا. فقد امتلك عرب الجنوب جزءاً من السواحل الإفريقية المقابلة لبلادهم لفترة طويلة من الزمن، كما امتلكوا بعضاً منها في الإسلام. ومن البديهي أن يكون انتقالهم الى تلك السواحل عن طريق ركوب السفن، ولا يعقل أن يكونوا قد ذهبوا إليها بسفن أجنبية، بل لا بد وأن يكونوا قد عبروا تلك السواحل بسفن كانت تعود لهم، ولا بد وأنه كان لهم أسطول تجاري يمحرون به عباب البحار للاتجار⁽⁹⁾.

وقد كان الاتجار مع إفريقيا سهلاً يسيراً لتجار اليمن بشكل خاص، بسبب أن المسافة بين سواحل إفريقيا وسواحل اليمن كانت قصيرة تستطيع حتى السفن الشراعية أن تقطعها دون كبير عناء⁽¹⁰⁾. ثم إن زهاب المسلمين الأوائل مهاجرين الى الحبشة، لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، يعتبر دليلاً على وجود اتصال بحري بين إفريقيا والجزيرة العربية⁽¹¹⁾.

ومن هنا فقد أظهر أهل السواحل الجنوبية والشرقية، بشكل خاص، نشاطاً في ركوب البحر، ربما زاد عن النشاط لدى أهل السواحل الغربية⁽¹²⁾. ومن هنا أيضاً فقد برع عرب الجنوب خاصة في ركوب البحر، وأصبحت لديهم ثقافة بشؤونه، فعرفوا الرياح التي تهب في البحار واتجاهاتها وأوقاتها، فعلموا ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها إبان هيجانه وأحوال ركوده وثورانه⁽¹³⁾. وقد استخدم العرب السفن على غرار جيرانهم ووصلوا بها الى المحيط الهندي، كما توجهوا الى شرق إفريقيا حيث بلغوا زنجبار وجزر القمر⁽¹⁴⁾.

والذي يفهم من المصادر أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب كبير في البحر أو في الصناعات البحرية، فكانوا يركبون البحر في سفن حبشية توصلهم الى السواحل الأفريقية للاتجار هناك. ولما خرج المسلمون الأولون في هجرتهم الى الحبشة وصلوا الى ميناء مكة (وهو الشعبية)، فوجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما الى أرض الحبشة بنصف دينار⁽¹⁵⁾. أما في رحلة العودة الى

الحجاز فتذكر المصادر أن النجاشي، ملك الحبشة، كان قد حمل هؤلاء المهاجرين على سفينتين من سفن الحبشة. ويبدو أن تلك السفن كانت صغيرة ومكشوفة الجوانب، كما أنها لم تكن تتسع لعدد كبير من المسافرين، وأن حركة المسافرين كانت تؤثر فيها. فقد روي أن جعفر بن أبي طالب، أحد أولئك المهاجرين، سأل رسول الله عن كيفية الصلاة في السفينة عند ركوب البحر فأجابه: صل قائماً إلا أن تخاف الغرق، أو أن يصلي قائماً إلا أن يضر بأهلها. وقد صلى أنس في السفينة جالساً⁽¹⁶⁾.

كما عرف العرب صناعة السفن، فصنع الجاهليون سفنهم بأيديهم في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب، ولا سيما على سواحل الخليج العربي، مستعينين بالخشب الصلد المستورد الذي كانت تفتقر إليه الجزيرة العربية⁽¹⁷⁾.

ويظهر من المؤلفات اليونانية واللاتينية أن العرب كانوا يملكون سفناً في البحر الأحمر وفي بحر العرب وفي الخليج العربي. إلا أن هذه السفن لم تكن ضخمة، ولهذا لم تتمكن من مجابهة السفن الرومانية والسفن اليونانية حين دخولها إلى المنطقة، لأنها كانت أضخم منها وأسرع⁽¹⁸⁾. ولا توجد دلائل على وجود قوة عربية بحرية في هذه الفترة فكانت سفن الروم هي المسيطرة على البحر الأحمر، وكانت تصل إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند. كما أن سفن الساسانيين كانت تهيمن على الخليج العربي وبحر العرب⁽¹⁹⁾.

ومما يدل على عدم جهل العرب قبل الإسلام بشؤون البحر، أن اللغة العربية تزخر بالمصطلحات البحرية كالسفينة والفلك، والساحل، والزورق، والقارب، والمجداف، والشرع، والمرفأ، وفرضة البحر، وغيرها كثير.

ويستنتج من العدد الكبير للمصطلحات البحرية أن البحرية العربية قبل الإسلام قد تأثرت بالبحرية الأجنبية، حيث نجد في مصطلحات البحر ألفاظاً يونانية، ولاتينية، وفارسية، ودخول الألفاظ إلى العربية دليل على تأثر البحرية العربية ببحرية تلك الأمم، واتصالها بها، وأخذها منها⁽²⁰⁾.

وإذا ما انتقلنا إلى الشعر الجاهلي فإننا سنجد فيه العديد من الإشارات إلى البحر وإن كانت لا ترقى إلى الصور المتنوعة والكثيرة التي وردت في وصف الصحراء. ومن الأوصاف التي استخدمها الشعراء الجاهليون تشبيه الظعن المرتحلة في الصحراء بالسفن العظام التي تسير في البحر، كقول النابغة:

كأن الظعن حين طفون ظهرأ سفين البحر يممّن القراحا⁽²¹⁾

كما استخدم الشعراء الجاهليون وصفاً مهماً مستمداً من البحر عندما شبهوا المحبوبة في حسنها وجمالها بالدرة، ثم الخروج الى وصف استخراج الدرّ من البحر، كقول امرئ القيس:

خدلجة رودة رخصة كدرة لج بأيدي الخول⁽²²⁾

ومن موضوعات الشعر الجاهلي بما يخص البحر تصويرهم للرحلة البحرية التجارية، ومنها هذه الأبيات لبشر بن أبي حازم الأسدي والتي يصف فيها رحلة بحرية تجارية في سفينة ضخمة، ألواحها مشدودة بعضها الى بعض، بالحبال لا بالمسامير، ومطلية بالقار. وهي أبيات لها قيمة تاريخية مهمة لأنها تبين لنا طريقة صنع العرب للسفن، حيث كانوا يبنونها من الألواح الخشبية التي يُشدّ بعضها الى بعض بحبال قوية ثم يطلونها بالقار. كما تشير الأبيات الى العلاقات التجارية مع الهند، وإلى بعض أنواع البضائع التي كانت تستورد من هناك وهذا شاهد على دور العرب في التجارة الدولية. يقول الشاعر:

أجالد صفهم ولقد أراني على قرواء تسجد للرياح
معبدة السقائف ذات دسر مضبرة جوانبها رداح
يمر الموج تحت مشجرات يلين الماء بالخشب الصحاح
فقد أوقرن من قسط وزند ومن مسك أحم ومن سلاح⁽²³⁾

ويبدو أن هذه الطريقة في صنع المراكب قد ظلت مستعملة لدى العرب في العصور الإسلامية المختلفة، وخاصة في صناعة مراكب البحر الأحمر. ويقدم لنا ابن جبير وصفاً مفصلاً لذلك يبين فيه فائدة استخدام هذه الطريقة ونجاحتها في التخفيف من أخطار الشعاب المرجانية على السفن، فيقول بأن مراكب البحر الأحمر "لا يستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخططة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل (جوز الهند) يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه أمراساً يخيطنون بها المراكب ويخللون بها بدسّر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة (المركب) على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش، وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى فيه. ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر"⁽²⁴⁾.

ومن الموضوعات الغريبة والنادرة التي طرقها شعراء الجاهلية تشبيه أحدهم لمهارته في نظم الشعر والنثر بمهارة الحوت في السباحة، كقول عبيد بن الأبرص:

سل الشعراء هل سبحوا كسبحي بحور الشعر أو غاصوا مغاصي
لساني بالنثير وبالقوافي وبالأسجاع أمهر في الغياص

من الحوت الذي في لجج بحر يجيد السبح في لجج المغاصي (25)

أما عمرو بن كلثوم فلم يتوانَ عن الإشارة إلى البحر وسفنه في معلقته الشهيرة، عندما تفاخر بنفسه وبأبناء قبيلته، عندما قال:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا (26)

إن الشواهد والأمثلة السابقة، وإن كانت تدل على معرفة العرب للبحر واستخدامهم له، إلا أنها لا تعني أن العرب قد مارسوا ركوب البحر بشكل واسع كما كان الحال عند الفينيقيين أو اليونان أو الرومان أو الفرس. بل كانت ممارستهم لذلك بشكل نسبي، إذ لم يتمكنوا من الاستفادة بشكل كامل من ظروف بلادهم وموقعها البحري، حيث كانت تطل على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي.

ولعل ذلك راجع إلى بعض الموانع والعقبات التي حدثت من استخدام العرب للبحر بشكل فعال: منها أن القسم الجنوبي من بلاد العرب كان قد تعرض زمناً لسيطرة الأحباش الذين قضوا على تجارة العرب في بحر عمان والخليج العربي، واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند، إضافة إلى طبيعة بلاد العرب الصحراوية حيث يقل فيها وجود الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن، وحيث تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير والكالليب، ولخلوها من الزفت والقطران، هذا بالإضافة إلى صعوبة الملاحة في البحر الأحمر لكثرة الصخور المرجانية فيه، والتي تعرض السفن للخطر (27).

وإذا كان الحال كذلك في الفترة التي سبقت الإسلام، فما مستوى النشاط البحري في الفترة الإسلامية المبكرة - موضوع بحثنا - وكيف كان مستوى المعرفة البحرية - أو الجهل بها - لدى العرب المسلمين؟

لقد ورد ذكر البحر وما يتعلق به مرات عديدة في القرآن الكريم. فقد وردت كلمة "بحر والبحر" حوالي ثلاثين مرة (28)، ووردت كلمة "بحران وبحرين" خمس مرات (29)، وكلمة "البحار" مرتين (30)، وكلمة "أبحر" مرة واحدة (31)، وكلمة "الفلك" ثلاثاً وعشرين مرة (32)، وكلمة "سفينة" أربع مرات (33).

وفي كثير من هذه المواضع التي أشرنا إليها فإن القرآن الكريم يصور البحر وكأنه نعمة على العالمين، فمنه يأكل الناس ويتزينون، وبوساطته يعبرون البلاد للتجارة والكسب. كما يصور القرآن البحر وكأنه ملجأ للمؤمنين ونصير لهم، وأنه مبيد للكافرين ومهلك لهم.

والقرآن الكريم يمن على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وما فيه من منافع مختلفة كالملاحة والصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان، وهذا دليل قاطع على أن العرب لم يكونوا يجهلون

البحر بل كانوا يعرفونه حق المعرفة، وكانت حياتهم تتأثر به تأثراً قوياً، وإلا لما عرض القرآن له، وما أقام الحجة به عليهم⁽³⁴⁾.

ويشير القرآن كذلك الى علم الأنواء، والى الطريقة التي كانت تتبع في تحديد خطوط سير السفن اعتماداً على النجوم. كما يشير القرآن الى وجود نوعين من البحار وهي البحار المالحة والبحار ذات المياه العذبة، وما كان من التقاء هذين النوعين من البحار بما لا يؤدي الى تلوث مياه البحار العذبة (أي الأنهار) بمياه البحار المالحة.

أما بالنسبة للحديث النبوي فقد ورد ذكر البحر في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة. فقد جاء في سنن ابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال: جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا. أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"⁽³⁵⁾ وقال عنه صحيح. ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية عبد الله بن عمر: "لا تركب البحر إلا حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله تعالى"⁽³⁶⁾. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رواية أبي الدرداء: "غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر، والذي يسدر (أي يصيبه الدوار) في البحر كالمشطح في دمه في سبيل الله سبحانه"⁽³⁷⁾.

وعلى الرغم من هذه الإشارات الى أهمية الغزوات البحرية وفضلها، إلا أن البحر لم يكن يستخدم بشكل عام للغزو زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك فهناك إشارات ودلائل على بدايات اهتمام المسلمين وتنبيههم الى الأهمية العسكرية والتجارية للبحر. فيذكر ابن هشام في السيرة النبوية، برواية ابن اسحق، أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث في السنة العاشرة للهجرة سرية الى سيف البحر، عليهم أبو عبيدة بن الجراح وزودهم جراباً من تمر اتخذوه قوتاً لهم الى ان نفذ، وكادوا يهلكون جوعاً، الى أن أخرج الله لهم دابة من البحر، فأصابوا من لحمها وشحمها مدة عشرين ليلة حتى تعافوا. ولما قدموا على الرسول أخبروه بما حدث معهم من أكلهم لتلك الدابة، فقال لهم: رزق رزقكموه الله⁽³⁸⁾.

كما يذكر الواقدي أنه "بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناساً من الحبشة ترايهم (أي رآهم) أهل الشعبية - ساحل بناحية مكة - في مراكب ... فبعث علقمة بن مجزز المدلجي في ثلاثمائة رجل حتى انتهى الى جزيرة في البحر فخاص إليهم فهربوا منه. ثم انصرف"⁽³⁹⁾.

ونتيجة لغزوة تبوك وعلى إثرها صالح الرسول صلى الله عليه وسلم سكان أيلة، حيث أتاه يُحَنَّة بن رُبَعة، صاحب أيلة، فصالحه على أن يدفع للمسلمين الجزية. ويدل كتاب الصلح لأهل أيلة إدراك الرسول صلى الله عليه وسلم للأهمية البحرية لمدينة أيلة ولأهمية البحر بالنسبة لها أيضاً، فمنح سكانها الأمان وحرية التنقل بكتاب الأمان الذي نصه "هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول

الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة، لسفنههم وسائرهم في البر والبحر، لهم زمة الله وزمة محمد رسول الله، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وانه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر" (40).

لقد استخدم المسلمون البحر منذ بدايات الدعوة الإسلامية، أيام هجرتهم الأولى من الحجاز الى الحبشة، إن تشير المصادر . كما أسلفنا . الى استئجارهم سفينة أوصلتهم الى الشواطئ الحبشية. كما تشير المصادر أيضاً الى أن قريشاً قد قامت بملاحقتهم الى الحبشة، فأرسلت وفداً الى النجاشي، ملك الحبشة، وعلى رأسه عمرو بن العاص (41).

وترجع أول غزوة بحرية إسلامية الى أيام ابي بكر الصديق، الخليفة الراشدي الأول، أثناء محاربته للمرتدين. فقد قام أبو بكر بتكليف العلاء بن الحضرمي بقمع ردة البحرين. فكتب العلاء الى من ثبت إسلامه من بكر بن وائل من أهل البحرين يأمرهم بالعودة للمنهزمين والمرتدين، وندب الناس الى دارين (42)، فاقتحموا البحر الى دارين واقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر المسلمون وانهزم المشركون (43).

ويذكر البلاذري في فتوح البلدان بأن عمر بن الخطاب كان قد ولي عثمان بن أبي العاص الثقفي على البحرين وعمان سنة 15هـ، فقام عثمان بتوجيه أخيه الحكم الى البحرين ومضى عثمان الى "تانة" على ساحل السند في غارة بحرية ناجحة. كما أرسل عثمان أخاه المغيرة بن أبي العاص الى "خور الديبل" على ساحل بحر الهند في غزوة بحرية مماثلة فلقى العدو وظفر به. وبعد عودته من تلك الغزوة أرسل عثمان الى الخليفة عمر يخبره بذلك، فغضب عمر وكتب إليه "يا أبا ثقيف، حملت دوداً على عود، واني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم" (44).

وبعد انتصار المسلمين في جلولاء بالعراق سنة 16هـ، أمر عمر بن الخطاب واليه على عُمان، عثمان بن ابي العاص، بركوب البحر، فخرج ومعه ثلاثة آلاف مقاتل من الأزد وعبد القيس، وعبر بهم من "جلفار" (رأس الخيمة) الى جزيرة "كاوان"، حيث استسلم قائد الحامية الفارسية فيها، ولما علم بذلك يزدجرد، ملك الفرس، أمر عظيم كرماني بالتصدي للمسلمين، ووقعت معركة بين الطرفين استطاع المسلمون أن يحققوا فيها نصراً حاسماً على الفرس (45).

وتشير المصادر الى ان عامل البحرين، العلاء بن الحضرمي، قام بإبان الفتح الإسلامي لبلاد فارس بحملة سنة 17هـ استهدفت مقاطعة اصطخر. إلا أن هذه الحملة لم تحقق الأهداف التي ذهبت من أجلها، حيث واجهت مقاومة عنيفة من قبل الفرس، مما اضطرها لطلب المعونة من الجيش الإسلامي المتواجد في العراق، لا سيما بعد أن فقدت هذه الحملة كل سفنها. ذلك أن العلاء بن الحضرمي، والي عمر على البحرين، جهز حملة بحرية عبر بها لخليج العربي الى ساحل

فارس، وتوغل في البر الفارسي، فحال الفرس بين المسلمين وسفنهم، وحطموها، فعادت الحملة براً عن طريق البصرة، بعد معارك شديدة مع الفرس. فلما بلغ عمر ما صنعه العلاء غضب وعزله عن منصبه. ويبدو أن العلاء كان يسابق سعد بن أبي وقاص في العمل لصالح المسلمين وأن العلاء كان يفخر بدوره الكبير في حروب الردة. فعندما اشتهر أمر سعد بعد الانتصار الكبير في معركة القادسية أراد العلاء أن يقدم شيئاً مهماً جديداً، فندب أهل البحرين إلى فارس دون تقدير للنتائج. وعندما فشلت الحملة، عزله عمر وتوعده وأمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه بتأثير سعد عليه، فأمره أن يلتحق بسعد بن أبي وقاص جندياً تحت إمرته⁽⁴⁶⁾.

ومن هنا يمكن لنا أن نستنتج أن بدايات ظهور البحرية الإسلامية قد بدأت منذ دخول عناصر عربية جنوبية على مسرح الأحداث العسكرية الإسلامية. فقد ساهمت عُمان واليمن في الفتوحات الإسلامية الكبرى من خلال أبناء القبائل الذين انخرطوا في صفوف جيش المسلمين بالبصرة لفتح بلاد فارس براً وبحراً.

وما يؤكد معرفة عمر بالبحر وإدراكه لأهميته العسكرية والتجارية ما حدث في عام الرمادة سنة 18هـ. فقد أصاب الحجاز القحط في ذلك العام، فما كان من عمر إلا أن كتب إلى أمراء الأمصار يستغيثهم أهل المدينة ومن حولها ويستمددهم. فهبت الأمصار لنجدة الحجاز، بما فيهم عمرو بن العاص، والي مصر، والذي كتب إلى عمر: لأمدنك بغير طعام أوله عندي وآخره عندك. وقام عمر بن العاص بإصلاح القناة القديمة التي أنجزها "داريوس" ملك الفرس (522 - 486 ق. م) ثم أعاد بناءها الإمبراطور الروماني "تراجان" (98 - 117م)، وكانت تربط نهر النيل بالبحر الأحمر. فحمل الطعام عبر هذه القناة، التي عُرفت عند المسلمين باسم "خليج أمير المؤمنين"، إلى ساحل البحر الأحمر حيث ميناء "الجار". وبلغ عمر قدومها، فخرج لاستقبالها مع جمع من الصحابة، ثم وكل من قبض ذلك الطعام؛ فكان سعر الطعام في المدينة كسره في مصر⁽⁴⁷⁾. كما استخدمت هذه القناة في نقل الحجاج إلى مكة، حيث يشار إلى وجود سفن كبيرة كانت مخصصة لنقل أعداد كبيرة من الحجاج في تلك الفترة إلى الحجاز⁽⁴⁸⁾.

وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة لهذه القناة، إلا أن عمر بن الخطاب رفض اقتراحاً لعمرو بن العاص بشق قناة من بحيرة التمساح إلى البحر المتوسط شمالاً، خوفاً من أن تعبر أساطيل الروم إلى البحر الأحمر وتعترض طريق الحجيج⁽⁴⁹⁾.

وفي سنة 20هـ يبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب حاول أن يعيد تجربة الغزوات البحرية (بعد التجارب السابقة التي اعترى بعضها الفشل) فأرسل علقمة بن مجزز المدلجي بجيش كبير إلى الحبشة عن طريق البحر، إلا أن هذا الجيش أصيب بهزيمة قاسية فجعل عمر على نفسه ألا يحمل في البحر أحداً أبداً⁽⁵⁰⁾.

لقد اهتم الخليفة عمر بن الخطاب بالبحر وشؤونه، ولهذا فقد خصص للبحر عاملاً خاصاً به، كانت مهمته تتعلق بكل ما يخص البحر. فقد روى أبو يوسف قال: حدثني الحسن بن عمار عن عمرو بن دينار عن طاووس عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "استعمل يعلى بن أمية على البحر، فكتب إليه في عنبرة وجدها على الساحل يسأله عنها وعمّا فيها، فكتب إليه عمر: إنه سيب من سيب الله، فيها وفيما أخرج الله - جل ثناؤه - من البحر الخمس، قال وقال عبد الله بن عباس: وذلك رأيي" (51).

وعوداً على بدء فنرجع الآن الى الرواية الرئيسة - موضوع البحث - والتي ذكرناها في بداية هذه الدراسة، وملخصها أن معاوية بن أبي سفيان استأذن الخليفة عمر بن الخطاب بركوب البحر، فقام عمر بمشاوره عمرو بن العاص الذي نبه الى مخاطر ذلك، فاتخذ عمر - بناء على ذلك - قراراً يمنع معاوية من ركوب البحر وينهى عنه.

إن القراءة المتأنية لمجمل الروايات المتعلقة بهذه القضية تبين أن هذه الروايات تتضمن الكثير من المبالغة، بل وتنقصها الدقة والموضوعية. فكيف نقبل فكرة جهل عمر بن الخطاب بالبحر، وهو العربي المكي المسلم، الذي اشتغل قبل الإسلام بالتجارة، وعاش في مكة مجاوراً للبحر الأحمر، وقرأ القرآن وتدبر آياته وسوره، بما تضمنته من إشارات كثيرة الى البحر وسفنه؟

فمسألة جهل عمر بالبحر هي مسألة مرفوضة، لا يقوم عليها أي دليل علمي، ومن هنا فلا بد من البحث عن تفسير بديل، تؤيده الشواهد التاريخية والأدلة العقلية.

إن عدم سماح عمر بركوب البحر ربما يفسر بعدة عوامل أو مبررات. أما أولها فيرجع الى مجموعة التجارب الصعبة أو الفاشلة التي مرّ بها المسلمون في بداية حروبهم العسكرية البحرية، والتي أشرنا الى بعض منها قبل قليل، كتجربتي العلاء بن الحضرمي وعلقمة بن مجزز المدلجي.

أما التفسير الثاني، فهو أن سياسة عمر بن الخطاب البحرية في هذه الفترة كانت تمثل استمراراً لسياسته البرية والتي تتلخص بالتريث في الفتوحات الإسلامية بعض الوقت، ريثما يستطيع المسلمون التمكن من البلاد المفتوحة، ولذلك فقد نهى عمر عن استمرارية الفتوحات وتلاحقها في بلاد فارس بعد معركة القادسية، فعندما كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بما فتح الله على المسلمين في القادسية كتب إليه عمر "أن قف، ولا تطلبوا غير ذلك. فكتب إليه سعد أيضاً: إنما هي سرية أدرناها والأرض بين أيدينا، فكتب إليه عمر: أن قف مكانك ولا تتبعهم واتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً. فنزل سعد بالناس الأنبار (52) "

وهناك إشارة ثانية ومهمة تدل على سياسة فتوحات متأنية يتبناها عمر، وهي أنه منع عمرو بن العاص، عامله على مصر، من التوجه الى إفريقية لفتحها. ففي سنة 22هـ افتتح عمرو بن العاص طرابلس عنوة، فكتب الى عمر "إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل، فكتب إليه ينهأ عنها ويقول ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها⁽⁵³⁾".

ويمكن لنا أن نتبين سياسية التريث هذه التي انتهجها عمر بن الخطاب من خلال ظهور نوع من العلاقات السلمية أو الدبلوماسية - إذا جاز التعبير - مع بيزنطة. فقد "ترك ملك الروم الغزو، وكتب عمر وقاربه، وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله، فكتب إليه: أحب للناس ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لها، تجتمع لك الحكمة كلها. واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها⁽⁵⁴⁾".

ويقال أيضاً بأن أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - زوجة الخليفة عمر - بعثت "بطبيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته الى البريد، فأبلغه لها، وأخذ منه. وجاءت امرأة هرقل، وجمعت نساءها، وقالت: هذه هدية امرأة ملك العرب، وبنت نبيهم، وكاتبته وكافاتها، وأهدت لها؛ وفيما أهدت لها عقد فاخر. فما انتهى به البريد إليه أمر بإمساكه، ودعا: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصلى بهم ركعتين، وقال: إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم، فقال قائلون: هو لها بالذي لها، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به، ولا تحت يدك فتتقيك. وقال آخرون: قد كنا نهدي الثياب لنسثيب، ونبعث بها لتباع، ولنصيب ثمناً. فقال: ولكن الرسول رسول المسلمين، والبريد بريدهم، والمسلمون عظموها في صدرها. فأمر بردها الى بيت المال، ورد عليها بقدر نفقته⁽⁵⁵⁾".

أما التفسير الثالث - وربما الأكثر أهمية والأكثر قرباً الى موضوع نهى عمر عن ركوب البحر - فيرجع الى الخطأ في فهم النص المنسوب الى عمر وعدم الدقة في تفسير عبارته، كما أوردتها المصادر. فالنص الذي تكرر - ولو بأشكال مختلفة - عن الموضوع يقول بأن عمر بن الخطاب أرسل الى عمرو بن العاص كي "يصف له البحر وراكبه". فلا يعقل أن عمر أراد "وصفا للبحر وراكبه" من باب الجهل المطلق بالموضوع، كما لا يمكن لنا أن نفسر كلمة "البحر" الواردة في النص باعتبارها دالة على العموم. بمعنى آخر فإن كلمة "البحر" لم تطلق للدلالة عموماً على البحر - بمعنى أي بحر. كما فهمها الكثيرون، وإنما هي كلمة تشير الى معنى آخر قصد به "هذا البحر" أي البحر المتوسط، والذي لم تكن لدى عمر دراية كبيرة به، أي أن مضمون عبارة عمر، وسؤاله لعمرو بن العاص، كانت تعني "صف لي هذا البحر" الذي يطلب مني معاوية أن أذن له بركوبه - أي صف لي "هذا البحر المتوسط".

ولعل ما يثبت ما نذهب إليه تنتمى الرواية، والتي لم يفتن إليها الكثير من الدارسين، والتي تقول "كتب عمر الى معاوية: إنا سمعنا أن بحر الشام (أي البحر المتوسط) يشرف على أطول شيء على الأرض، يستأن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها؛ فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستعصب؛ وتألله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم؛ فإياك أن تعرض لي؛ وقد تقدمت إليك؛ وقد علمت ما لقي العلاء مني؛ ولم أتقدم إليه في مثل ذلك⁽⁵⁶⁾". فالمقصود، إذن، هو بحر الشام، أي البحر المتوسط، لا البحر على العموم.

وهكذا يمكن أن نقول بأن عمر بن الخطاب منع المسلمين من الإبحار في البحر المتوسط فقط، وذلك لأن هذا البحر كان من البحار غير المعروفة سابقاً للمسلمين، ويؤكد ذلك ابن خلدون عند حديثه عن هذا البحر بقوله "إن العرب لبدوتهم لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه (أي ركوب البحر المتوسط)، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده، مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته. فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، واستحدثوا بصراء بها، فشرهوا الى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس⁽⁵⁷⁾".

ويمكن أن نستنتج من النص السابق أن ابن خلدون يشير الى عدة حقائق أهمها ثلاث، الأولى: أن العرب لم يكونوا على دراية ومعرفة كافية بأحوال البحر المتوسط، على عكس الروم والفرنجة الذين كانت لهم خبرتهم وممارستهم وتجاربهم فيه، حيث شكلوا خصماً عنيداً للمسلمين، بمعنى آخر فإن سيطرة الأسطول البيزنطي على البحر المتوسط كان لها أثرها على موقف عمر بن الخطاب من الإبحار فيه. والثانية: أن العرب قد سخروا كل الإمكانيات المتاحة لهم للتدرب على أمور هذا البحر، بما في ذلك صناعة السفن التي تلائم الإبحار فيه. والثالثة: أنهم أوكلوا مهمة الإبحار في البحر المتوسط والإشراف على شؤون الحرب فيه الى الممالك والثغور القريبة منه كالشام وإفريقية والمغرب والأندلس. وفي عبارة ابن خلدون الأخيرة نجد إشارة صريحة الى البحر المتوسط من خلال تعداده للممالك والثغور المطلة عليه.

ونتيجة لتلك الظروف، ونقص ذلك عدم خبرة العرب بالبحر المتوسط من جهة، وقوة عدوهم وخبرته به من جهة ثانية، فقد عمد عمر بن الخطاب - في سبيل حماية السواحل الشامية - الى سياسة بحرية دفاعية عن طريق وضع حاميات قوية في الثغور والمدن الساحلية المهمة في اللاذقية وطرابلس وصور وعكا⁽⁵⁸⁾. ففي ذي القعدة من سنة 16هـ، وعندما تعرضت سواحل مصر

والشام لغزوة بحرية بيزنطية، أمر عمر بن الخطاب بوضع المسالحي على المنطقة الساحلية كلها (59). كما تذكر المصادر بأن المسلمين كانوا "كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد" (60). كما تمثلت تلك السياسة البحرية الدفاعية بالاهتمام بالحصون الساحلية. فيذكر "أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب، بعد موت أخيه يزيد، يصف له حال السواحل، فكتب إليه في مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على منازرها، واتخاذ المواقيد لها، ولم يأذن له في غزو البحر" (61).

إن الخليفة عمر بن الخطاب قسم بلاد الشام إلى أجناد أخذت طابع التقسيم العرضي مستفيداً و مطوراً لما كان من تقسيمات في عهد الدولة البيزنطية، فأصبح كل جند من أجناد بلاد الشام يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية بحيث تستطيع كل منطقة من الاعتماد على الأخرى حربياً واقتصادياً فيما إذا تعرضت للغزو الخارجي وخاصة الغزوات البحرية في الوقت الذي لم تتوفر فيه السفن الكافية والخبرة القتالية للعرب في البحر (62).

فقد كانت عرقة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة إلى جند دمشق واللاذقية وجبلة وبانياس وانطرسوس تتبع لجند حمص، وصور وعكا تتبع جند الأردن وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة تتبع جند فلسطين (63).

ويبدو أن توجيه عمر بن الخطاب لواليه معاوية بالقيام بهذه التحصينات هو كل ما استطاع معاوية الحصول عليه من الخليفة بشأن البحر المتوسط، وكان عليه أن ينتظر حتى خلافة عثمان بن عفان - خليفة عمر - كي يحصل على ما يريد. فلما ولي عثمان الخلافة لم يزل معاوية يراجع له ويلح عليه في غزو البحر حتى وافقه على ذلك، ولكن هذه الموافقة كانت مشروطة، إن اشترط عليه عثمان أن لا يجبر الناس على الخروج، بل أن يكون لهم الخيار، وقال له: "لا تنتخب الناس، ولا تفرع بينهم؛ خيرهم؛ فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل... (64)".

وفي رواية ثانية أن عثمان قال لمعاوية إثر إلحاحه عليه للسماح له بركوب البحر "فإن أبييت ذلك ولم يكن لك بد من ركوب البحر فاحمل معك أهلك وولدك حتى أعلم أن البحر هين كما تقول" (65).

ثم إن عثمان أمر معاوية "أن يُعِد في السواحل إذا غزا أو أغزا جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، ويبني المساجد... ثم إن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية" (66). ويبدو أن هذه السياسة التي اتبعها عثمان والتي تمثلت بإقطاع الجند في السواحل وإعطائهم المنازل المهجورة فيها - كما نستنتج من النص السابق - كانت تهدف إلى تشجيع المسلمين على الاستقرار في تلك السواحل.

ولا بد أن نشير هنا الى نهج آخر انتهجه عمر بن الخطاب في سياسته مع جيوش الفتح الإسلامي وقادته، وهي ان لا يجعل بينه وبينهم ماء، حتى إذا أراد أن يركب إليهم راحلته ويقدم عليهم فعل. ولذلك فقد كتب عمر "الى سعد بن أبي وقاص، وهو نازل بمدائن كسرى، والى عامله بالبصرة، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية، أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن اركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت (67)".

ولعل السبب الرئيس وراء هذه السياسة التي عُرِف بها عمر - والتي تقتضي تجنب وجود الحواجز المائية بين قيادة المسلمين في العاصمة وبين الجيوش الإسلامية الفاتحة - يرجع الى حرص عمر الشديد على أفراد الجيش الإسلامي، وبالتالي عدم تعريضهم الى مخاطر يمكن تجنبها، وهذا يفسر لنا تأكيداً على أن لا تكون هناك موانع مائية بينهم. من جهة ثانية، فإن حرص عمر هذا على جنود المسلمين يمكن أن يفسر لنا مرة ثانية - سبب إحجام عمر عن الدخول في مغامرات بحرية خطيرة لا يمكن التأكد من نتائجها، وخاصة مغامرات بحرية في بحر مجهول بالنسبة للمسلمين، وهو البحر المتوسط.

أما حرص عمر على جنوده فيبدو واضحاً صريحاً في روايات تاريخية كثيرة نقدم نماذج منها فيما يلي. وأول هذه الروايات هي التي تقدمت في جواب عمر الى معاوية حين طلب منه الغزو في البحر، إذا يقول عمر "فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستعصب؛ وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم (68)". وعندما كان المثنى بن حارثة الشيباني يغير بناحية الحيرة كتب الى عمر يستأذنه لملاحقة الأعاجم، فكتب إليه عمر "إنه أتاني كتابك انك تغير على من قبلك من الأعاجم، وقد أصبت ووقفت؛ أقم مكانك واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمري (69)". ويخبرنا ابن عبد الحكم أن قبائل همدان ومن والاها استحببت الإقامة في الجيزة، فكتب عمرو بن العاص الى عمر بذلك يستشير، فرد عليه عمر بعبارات توضح مدى حرصه على المسلمين واهتمامه بهم، فيقول "كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك؛ لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينهم وبينك بحر لا تدري ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك؛ فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم فابن عليهم من فيء المسلمين حصناً (70)". فعرض عليهم عمرو بن العاص هذا الرأي فأبوا، وأعجبهم موضعهم بالجيزة، فبنى لهم الحصن الذي بالجيزة سنة 21هـ وانتهى من بنائه سنة 22هـ (71).

وهكذا تبين لنا أن العرب لم يكونوا يجهلون البحر - لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم. فقاموس اللغة العربية يزخر بالمفردات الدالة على البحر وشؤونه، كما دلت الشواهد التاريخية على نشاط العرب قبل الإسلام بركوب البحر والاتجار عبره، إضافة الى صناعتهم للسفن. أما الشعر

الجاهلي فقد وجدنا فيه العديد من الإشارات الى البحر وسفنه وأماجه، إضافة الى استخدام الشعراء الجاهليين للبحر لإبداع صور شعرية تدل على معرفة مبدعيها بذلك البحر معرفة جيدة.

أما عن الفترة الإسلامية، فقد أتينا بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف تدل على معرفة للعرب واسعة بأحوال البحر. ثم دللنا بالروايات التاريخية على تجربة المسلمين . في الفترة الإسلامية المبكرة . في مجال استخدام البحر للسفر والغزو والإمداد.

كما حاولنا أن نبين صلة الخليفة عمر بن الخطاب بالبحر قبل الإسلام وبعده، كي نستنتج أن البحر لم يكن شيئاً غريباً عنه. ومن هنا فإننا ندحض الروايات التي تحاول أن تنسب الى عمر بن الخطاب جهله بالبحر وخوفه منه.

إن موقف عمر بن الخطاب من استخدام البحر في معارك بحرية . ضد البيزنطيين وفي البحر المتوسط بشكل خاص . كان نابعاً من حرصه على جنود المسلمين من جهة، ومن سياسة كانت تميل الى التآني والتريث في الفتوحات من جهة ثانية، والى كون البحر المتوسط من البحار غير المعروفة للمسلمين من جهة ثالثة، وبسبب سيطرة الأسطول البيزنطي على البحر المتوسط من جهة رابعة.

Problematical Aspects of Islamic Navigation in the Period of Umar B. Al – Khattab: A Study of Narratives

Abdalla Omari and Numan Jubran

Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Abstract

Different Studies dealt with Islamic Navigation and its origins. They tried to explain the reasons behind its rise on the one hand and to show the correct date of that rise, on the other.

It is worth noting that Islamic Navigation – according to most studies – was originated during the period of the third Rashidi Caliph, Uthman, at the advice of Muawiyah, his governor of al – Sham.

One of the disputed arguments included in these studies, was that Umar's refusal came after an explanation was sent to him by Amr, governor of Egypt, about the dangers of Navigation. In other words, Umar, the Caliph, was described as an ignorant of the sea and of navigation.

This study is an attempt to show that these arguments are inaccurate.

Umar knew the sea very well. He refused early Navigation attempts because he cared about his soldiers, because the Mediterranean was unfamiliar and unknown sea to Muslims, because he followed a policy of slowing down the Islamic conquests, and because of Byzantine domination in the Mediterranean.

وقبل للنشر في 2006/6/11

قدم البحث في 2005/8/11

الهوامش

- (1) لن نلجأ الى تعداد تلك الدراسات هنا، فهي كثيرة وسوف يشار الى بعض منها في أثناء هذه الدراسة.
- (2) أنظر على سبيل المثال: عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1986)، ص 75؛ أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام (دار النهضة العربية، بيروت، 1981)، ص 24.
- (3) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (مؤسسة المعارف، بيروت، 1987)، ص 208؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1988)، ج2، ص 600؛ عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ (دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 1986)، ج3، ص 48؛ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (دار الفكر، بيروت، 1981)، ص 313؛ نقي الدين المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (مطبعة بولاق، القاهرة، 1270هـ)، ج3، ص 4.
- (4) الطبري، تاريخ، ج2، ص 600؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص 48؛ ابن خلدون، المقدمة، ص 313؛ المقرئزي، الخطط، ج3، ص 4.
- (5) الطبري، تاريخ، ج2، ص 600؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص 48؛ ابن خلدون، المقدمة، ص 313؛ المقرئزي، الخطط، ج3، ص 4.
- (6) ياقوت الحموي، معجم البلدان (دار صادر، بيروت) ج3، ص 351.
- (7) المصدر نفسه، ج2، ص 92 - 93.
- (8) الطبري، تاريخ، ج1، ص 546؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (دار الفكر، بيروت، 1981)، ج2، ص 421.
- (9) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1980)، ج7، ص 261.
- (10) المرجع نفسه، ج3، ص 262.
- (11) الطبري، تاريخ، ج1 ص 546؛ جواد علي، المفصل، ج7، ص 262 - 263.
- (12) جواد علي، المفصل، ج3، ص 244.
- (13) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (دار المعرفة، بيروت) ج1، ص 112.

- (14) عبد الله خلف الشملان، بناء السفن الخشبية في دولة البحرين، 1990، نقلاً عن إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار (المطبعة الأميرية، بولاق، 1312هـ)، ج2، ص37.
- (15) الطبري، تاريخ، ج1، ص546؛ جواد علي، المفصل، ج7، ص259.
- (16) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق إبراهيم الإبياري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ شلبي (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1936)، ج4، ص3؛ جواد علي، المفصل، ج7، ص259.
- (17) جواد علي، المفصل، ج7، ص256 - 257.
- (18) المرجع نفسه، ج7، ص265.
- (19) المرجع نفسه، ج7، ص266.
- (20) المرجع نفسه، ج7، ص259.
- (21) حسين عطوان، وصف البحر والنهر في الشعر العربي في العصر الجاهلي، ص13 - 15، نقلاً عن ديوان النابغة، ص27.
- (22) المرجع نفسه، ص19 - 20، نقلاً عن ديوان أمريء القيس، ص298.
- (23) المرجع نفسه، ص27 - 29، نقلاً عن ديوان بشر بن أبي حازم الأسدي، ص47.
- (24) ابن جبير، رحلة، (دار صادر، بيروت، 1980)، ص47.
- (25) المرجع نفسه، ص31 - 32، نقلاً عن ديوان عبيد بن الأبرص الأسدي، ص76.
- (26) الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع (دار القاموس الحديث، بيروت)، ص189.
- (27) مختار العبادي وعبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ص14 - 15.
- (28) سورة القرآن: البقرة (164، 50)؛ المائدة (96)؛ الأعراف (138، 163)؛ إبراهيم (32)؛ الإسراء (66)، 67، 70)؛ الكهف (61، 79، 109)؛ طه (77)؛ الحج (65)؛ النور (40)؛ لقمان (27)؛ الشورى (32)؛ الرحمن (24)؛ الأنعام (59، 63، 97)؛ يونس (22)؛ الروم (41)؛ الطور (6)؛ النحل (14)؛ الشعراء (63)؛ الدخان (24)؛ الجاثية (12).
- (29) سورة القرآن: فاطر (12)؛ الكهف (60)؛ الفرقان (53)؛ النمل (61)؛ الرحمن (19).
- (30) سورة القرآن: التكويم (6)؛ الانفطار (3).
- (31) سورة القرآن: لقمان (27).
- (32) سورة القرآن: البقرة (164)؛ الأعراف (64)؛ يونس (22، 73)؛ الشعراء (119)؛ المؤمنون (22، 28، 28)؛ الروم (46)؛ الجاثية (12)؛ غافر (80)؛ العنكبوت (65)؛ يس (41)؛ الصافات (140)؛ الزخرف (12)؛ هود (37، 38)؛ إبراهيم (32)؛ النحل (14)؛ الإسراء (66)؛ الحج (65)؛ لقمان (31)؛ فاطر (12).
- (33) سورة القرآن: الكهف (71، 79)؛ العنكبوت (15).
- (34) طه حسين، في الأدب الجاهلي (دار المعارف، القاهرة، ط9، 1968) ص79.
- (35) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، 1986)، مج1، ص67.

- (36) ابن جماعة الحموي، مستند الأجناد في آلات الجهاد، تحقيق أسامة الناصر النقشبدي (وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1983) ص 49.
- (37) أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني البخاري، العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، تحقيق محمد بسيوني زغلول (دار الكتب العلمية، بيروت، 1985) ص 113.
- (38) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 281؛ الطبري، تاريخ، ج 2، ص 209.
- (39) محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس (عالم الكتب، بيروت)، ج 3، ص 983.
- (40) الواقدي، كتاب المغازي، ج 3، ص 1031؛ ابن كثير، البداية والنهاية (مكتبة المعارف، بيروت)، ج 5، ص 16.
- (41) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 356 - 357؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 71.
- (42) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، بينها وبين الساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر في بعض الحالات، وهي التي اقتحم إليها المسلمون البحر مع العلاء بن الحضرمي. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ج 2، ص 432.
- (43) الطبري، تاريخ، ج 2، ص 289 - 290؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 250 - 251؛ ابن خلدون، تاريخ، ج 2، ص 505.
- (44) البلاذري، فتوح البلدان، ص 607.
- (45) فاروق عمر، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى (دار واسط، بغداد، ط 2، 1985) ص 85 - 86.
- (46) الطبري، تاريخ، ج 2، ص 498 - 499؛ ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 377؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 7، ص 83 - 84؛ ابن خلدون، تاريخ، ج 2، ص 548 - 549؛ المقرئ، خطط، ج 3، ص 3 - 4.
- (47) الطبري، تاريخ، ج 2، ص 509؛ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (دار صادر، بيروت)، ج 2، ص 154؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم، فتوح مصر وأخبارها (بريل، ليدن، 1930)، ص 162 - 163؛ أحمد بن علي القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فراج (عالم الكتب، بيروت)، ج 1، ص 91؛ نيكيتا إيليسيف، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن (دار الكتاب الحديث، بيروت، 1986)، ص 105.
- (48) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967)، ج 1، ص 156 - 158؛ نيكيتا إيليسيف، الشرق الإسلامي، ص 105.
- (49) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية (دار الكتاب العربي، بيروت)، ص 75.
- (50) الطبري، تاريخ، ج 2، ص 517؛ ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 398؛ اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 156.
- سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 65.
- (51) القاضي أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج (دار المعرفة، بيروت، 1979)، ص 70.
- (52) الطبري، تاريخ، ج 2، ص 432.
- (53) البلاذري، فتوح البلدان، ص 316؛ اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 156؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 173.
- (54) الطبري، تاريخ، ج 2، ص 601؛ ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 48؛ ابن خلدون، تاريخ، ج 2، ص 576.

- (55) الطبري، تاريخ، ج2، ص 601؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص 48.
- (56) الطبري، تاريخ، ج2، ص 601؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص 48؛ ابن خلدون، تاريخ، ج2، ص 576.
- (57) ابن خلدون، المقدمة، ص 313 - 314.
- (58) وفیق الدقوقي، الجندية في عهد الدولة الأموية (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985)، ص 207 - 208.
- (59) الطبري، تاريخ، ج2، ص 516.
- (60) البلاذري، فتوح البلدان، ص 175.
- (61) المصدر نفسه، ص 175.
- (62) نجدة خماش، الإدارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 1987، مج2، ص 414 - 415.
- (63) المصدر نفسه، ص 415.
- (64) الطبري، تاريخ / ج2، ص 601؛ المقريزي، خطط، ج3، ص 5.
- (65) أحمد بن أعثم، الفتوح، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986)، مج1، ص 348.
- (66) البلاذري، فتوح البلدان، ص 175.
- (67) الطبري، تاريخ، ج2، ص 432؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 91.
- (68) الطبري، تاريخ، ج2، ص 601؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص 48.
- (69) الطبري، تاريخ، ج2، ص 440.
- (70) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 128.
- (71) المصدر نفسه، ص 128 - 129.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ابن أعثم، أحمد: الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1986.
- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 6، 1986.
- ابن جبير، أو الحسين محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1980.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، 1981.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، 1981.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر وأخبارها، بريل، ليدن، 1930.

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر: **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، د. ت.
- ابن هشام، عبد الملك: **السيرة النبوية**، تحقيق إبراهيم الأبياري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1936.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: **كتاب الخراج**، دار المعرفة، بيروت، 1979.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح سنن ابن ماجه**، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، 1986.
- إيليسيف، نيكيتا: **الشرق الإسلامي في العصر الوسيط**، ترجمة منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث، بيروت، 1986.
- البخاري، أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني: **العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة**، تحقيق محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987.
- حسين، طه: **في الأدب الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ط9، 1968.
- الحموي، ابن جماعة: **مستند الأجناد في آلات الجهاد**، تحقيق أسامة الناصر النقشبندي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1983.
- الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، د. ت.
- خماش، نجدة: **الإدارة ونظام الضرائب في الشام في عصر الراشدين**، بحث مقدم للندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 1987.
- الدقوقي، وفيق: **الجنديّة في عهد الدولة الأمويّة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
- الزوزني، الحسين بن أحمد: **شرح المعلقات السبع**، دار القاموس الحديث، بيروت، د. ت.
- سرهنك، إسماعيل: **حقائق الأخبار عن دول البحار**، المطبعة الأميرية، بولاق، 1312هـ.
- السيوطي، جلال الدين: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967.
- الشمّان، عبد الله خلف: **بناء السفن الخشبية في دولة البحرين**، 1990.

- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1988.
- العبادي، أحمد مختار وسالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- عطوان، حسين: وصف البحر والنهر في الشعر العربي في العصر الجاهلي، د. ن، د. ت.
- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1980.
- عمر، فاروق: تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، دار واسط، بغداد، ط2، 1985.
- القلقشندي، أحمد بن علي/ مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فراج، عالم الكتب، بيروت، 1980.
- ماجد، عبد المنعم: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى/ مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1986.
- ماهر، سعاد: الحرية في مصلا الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- المقريزي، تقي الدين: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق، القاهرة، 1270هـ.
- الواقدي، محمد بن عمر: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، عالم الكتب، بيروت، 1900.
- اليقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.